الاتصالات بين أمير حائل وشيخ الكويت

سنة ١٣٣٤هـ / ١٩١٦م

د. / خالد حمود عبدالله السعدون

أرتمت الدولة العثمانية في أتون الحرب العالمية الأولى في نوفمبر ١٩١٤ . وتحوّلت منطقة شمال شرق الجزيرة العربية إثر ذلك إلى ميدان قتال فعلي ، حين غزت الجيوش البريطانية جنوب العراق . وترتب على ذلك قيام الطرفين المتحاربين بنشاط كبير من أجل استقطاب ولاء وتأييد القوى المحلية في المنطقة . وقد صدرت تلك القوى مواقفها من الحرب الدائرة بدرجات متفاوتة في الوضوح والحسم . إذ أعلن حاكم الكويت الشيخ مبارك الصباح انحيازه التام وتأييده الصريح لحلفائه البريطانيين . بينما كان موقف حاكم نجد الأمير عبدالعزيز آل سعود أقرب إلى الحياد[١] وبالمقابل انضوت أغلب قبائل جنوب العراق إلى جانب العثمانيين[٢]. كما تمسّك حاكم حائل الأمير سعود بن عبدالعزيز الرشيد بولائه للدولة العثمانية رغم المحاولات المتكررة التي قام بها البريطانيون لاقناعه بالعدول عن ذلك[٣].

جاءت تلك الولاءات المتعارضة في وقت كانت فيه علاقات تلك القوى المحلية ببعضها ليست صافية تمام الصفاء . إذ توترت العلاقات بين الرياض والكويت في أخريات أيام الشيخ مبارك ، ثم انفرجت قليلاً في بداية عهد الشيخ جابر فيما يمكن اعتباره هدنة مؤقتة . أما علاقة

الرياض بحائل فكانت في هذا الطور كما في الأطوار التي سبقته تتأرجح بين حرب معلنة وهدنة قلقة . في حين كانت علاقة الكويت بحائل على شيء من التعقيد . فبعد العداء الصريح بين الطرفين الذي توج بمعركة الصريف (الطرفية) في سنة ١٩٠١، سعى الشيخ مبارك بعد مقتل حاكم حائل عبدالعزيز بن متعب الرشيد سنة ١٩٠٦ لدى خلفائه لتحسين العلاقة بين الطرفين . ورغم ذلك لايمكن القول أن مسعاه قد حقق النتيجة المرجوة ، إذ استمرت علاقة الطرفين قلقة لاتثبت على حال . ولعل عدم الاستقرار ذاك وليد تشابك علاقات الشيخ مبارك بكل من الرياض وحائل ، وانعكاس للمواقف المتغيرة التي كان يتبناها حيال الصراع الدائر بين هاتين الحاضرتين .

وقد أدى التزام الكويت وحائل لطرفين متناقضين من أطراف الحرب العالمية الأولى إلى زيادة التوتر في العلاقات بينهما ، بحيث يمكن القول أن تلك العلاقات اتجهت في أواخر أيام الشيخ مبارك لأن تكون علاقة خلاف ومواجهة لاعلاقة اتفاق ووئام . يدل على ذلك قيام بعض من أفراد قبيلة شمر التابعة لابن رشيد بالاغارة في أراضي الكويت على أربعمائة جمل وأموال أخرى عائدة لأهالي بلدة شقراء في نجد ونهبها في مايو سنة ١٩١٥ . وعلى اثر ذلك كتب الشيخ مبارك إلى الأمير سعود بن عبدالعزيز الرشيد يرجوه باسم الصداقة الأمر باعادة الجمال والأموال المنهوبة(٤). فرد عليه ابن رشيد برسالة خشنة الأسلوب نوعاً ما ، نثبتها بنصها هنا لما فيها من ايضاح لطبيعة العلاقة بين الرجلين :

● بسم الله الرحمن الرحيم ●

من سعود بن رشيد إلى جناب المكرم مبارك الصباح سلمه الله تعالى :

سلام عليك ورحمة الله وبركاته وعنا من فضل الله بأحسن حال والخط الذي مع رجالكم سيف وصل وماذكرتو [كذا] كان معلوم خصوص من طرف الأباعر والنقايص الذي خذو [كذا] الشمامرة تعجينا من ذالك في هذا الوقة [كذا] ليس لها مدخال ثم تعلم أن حنا تبع لحكومتنا السنية وفي انتظار أوامرها السامية في كل خصوص مالنا تداخل في الأمور المناقضة لمصالح دولتنا العلية وتذكر منطرف [كذا] الصداقة السابقة فأنتم ماجريتو [كذا] على مقتضاها

صديق الوجه عدو السرائر العاقل خصيم نفسه ومواد المحبة تفهمونها هذا مالزم ومنا السلام على العيال ولدينا والسلام (ختم)

٣٠ رجب ١٣٣٣ [٥]

يظهر من هذه الرسالة مقدار ما أشرنا له من تأثير مواقف الشيخ مبارك حيال الصراع بين الرياض وحائل على علاقته بالأخيرة . فعبارة «صديق الوجه عدو السرائر» تكشف عدم ثقة ابن رشيد بصدق مبارك نحوه ، وهي عدم ثقة تستند بلا ريب إلى مجريات أحداث الماضي أكثر من استنادها إلى وقائع الأحداث الحاضرة . ويدل هذا على عدم مرونة ابن رشيد في التعامل المستجدات السياسية ، إذ لو فعل لاغتنم فرصة التوتر في علاقات الشيخ مبارك مع خصمه ابن سعود لكسب الأول إلى جانبه . ولعله فكر في تلك الامكانية ، ولكن انتماءه والشيخ مبارك إلى معسكرين متعاديين جعل مثل تلك الامكانية بعيدة الاحتمال . يدل على ذلك تأكيد ابن رشيد المتكرر في رسالته على اخلاصه للدولة العثمانية . فلا مناسبة منطقية تفرض ذلك التكرار ، إلا أن يكون اشارة إلى أن اخلاصة ذاك يجعل علاقته بمبارك علاقة حرب تبرر القيام بمثل تلك الغارة وما نتج عنها من منهوبات . أو أن تكون رسالة الشيخ له ، والتي لم تصلنا للأسف ، حاوية على محاولة اقناعه بتغيير ولائه من العثمانيين إلى البريطانيين ، وذلك أمر ليس مستبعداً أيضاً لأن لدينا من الشواهد ما يثبت قيام مبارك بمحاولة مشابهة مع زعماء محليين آخرين[٦] . ولقد كان من مصلحة الشيخ أن يتم ذلك التغيير ، فيأمن من جرائه جانب ابن رشيد ، أو حتى يكسبه إلى جانبه على ضوء مامر ذكره من تغير علاقته مع الرياض في هذه الفترة .

يبدو على أية حال أن تلك الرسالة قد أغلقت الباب أمام أية امكانية للتصافي بين مبارك وابن رشيد ، وانعكس ذلك على موقف الأول حيال كل أفراد قبيلة شمر من أتباع ابن رشيد ، إذ أصدر الأوامر بحرمانهم من حق المرور الآمن في الأراضي الكويتية[٧] ولايبدو أن وفاة الشيخ مبارك في أواخر سنة ١٩١٥م قد أدت إلى تغيير فوري في طبيعة العلاقات بين الطرفين . إذ استمرت تلك العلاقات متوترة خلال الأشهر الأولى في حكم الشيخ جابر بن مبارك . لا بل إن التوتر كان في شهر أبريل ١٩١٦ واضحاً لدرجة جعلت القبائل التابعة للكويت تتوقع هجوماً يشن عليها من قبل ابن رشيد . وقد أدى ذلك التوقع بالشيخ سالم ابن مبارك الذي كان مخيماً على بعد ثمانين ميلاً غرب الجهراء إلى التراجع نحو الوراء ، وأن يطلب موافاته

بالتعزيزات من بلدة الكويت[٨].

وفجأة وفي خضم هذا التوتر تصل أخبار للزبير في النصف الأول من مايو ١٩١٦ تشير إلى اتجاه ابن رشيد نحو عقد السلام مع الكويت ، وأن مفاوضات تجري بينه وبين الشيخ جابر من أجل الوصول لهذه الغاية . وكانت تلك الأخبار مثار اهتمام السلطات البريطانية ، إذ بادر رئيس الضباط السياسيين البربرسي كوكى Sir P. Cox حال علمه بتلك الأخبار بارسال مذكرة إلى الوكيل السياسي البريطاني في الكويت في السادس عشر من مايو . وتضمنت مذكرته وصف موقف ابن رشيد حيال البريطانيين بأنه موقف متذبذب جداً ومتغير من يوم لآخر . وعبر كوكس عن قناعته بأن الشيخ جابر يوافق على أن تكون سياسته تجاه ابن رشيد متناسقة مع السياسة البريطانية حياله[٩] ولم يلبث كوكس أن عزز مذكرته تلك ببرقية أخرى بعثها بعد يومين إلى الوكيل السياسي في الكويت ، أعاد فيها وصف موقف ابن رشيد بالتضارب . فهو يطلب من البريطانيين السماح له بالتمون من الأسواق الخاضعة لهم ، ولكن من جهة أخرى يتجاهل رسائلهم له ويبقى ساكناً من غير حراك بالقرب من «الخميسية»[١٠] ضد رغبتهم. وأضاف: ــ «سمعنا مؤخراً انه كان هناك اشتباك بين دوريتي استكشاف تابعتين للكويت وابن رشيد ، ونسمع الآن عن عروض سلام جارية بين الكويت وابن رشيد وان سالم بن مبارك أرسل لابن رشيد مائتي كيس من الطحين . يرجى الابراق عن ماهية الوضع . يجب ألا يدخل شيخ الكويت مطلقاً في علاقات ودية (مع ابن رشيد) دون التشاور الكامل معنا»[١١].

وقبل التطرق إلى رد الوكيل السياسي البريطاني في الكويت على ماجاء أعلاه ، يحسن التوقف قليلاً عند الاصرار البريطاني على وجوب عدم تصرف الشيخ جابر في أمر علاقته مع ابن رشيد قبل الرجوع إلى رأي السلطات البريطانية . ويعود ذلك الاصرار إلى عدم نجاح السلطات البريطانية في اقناع ابن رشيد بالتزام جانبها في الحرب الدائرة ، أو وقوفه على الحياد على الأقل. ولذلك فإن دخول الشيخ جابر في اتصالات مع طرف يعتبر عدواً لبريطانيا يخل. من وجهة النظر البريطانية ــ بموقف التأييد المطلق لبريطانيا الذي التزمه شيخ الكويت الراحل. وإذا تساهلت السلطات البريطانية تجاه ذلك فقد يتشجع شيخ الكويت على اتخاذ خطوات أخرى تبعده أكثر عن التمسك بالجانب البريطاني ــ وقد يغري ذلك أيضاً قوى محلية أخرى بالحذو حذو شيخ الكويت . وذلك مالا ترضاه بريطانيا ، وهي الحريصة على حشد أكبر تأييد محلي خلفها ــ ثم أن قيام علاقات ودية بين شيخ الكويت وابن رشيد قد يفتح للأخير

سوق الكويت للحصول على المؤن اللازمة منه ، فتفقد بريطانيا بذلك وسيلة فعالة للضغط على ابن رشيد. إذ أنها استغلت حاجته للمؤن وجعلت مروره للأسواق الخاضعة لسيطرتها مشروطاً بحسن سلوكه تجاهها .

رد الوكيل السياسي البريطاني في الكويت على ماكتبه كوكس ببرقية مستعجلة أفاد منها بأن الموقف في الكويت مرض تماماً . وأوضح أن الاشتباك الذي أشار له كوكس لم يكن بين أتباع ابن رشيد وشيخ الكويت ، ولكنه كان بين جماعتي غزو تنتميان إلى قبيلتي مطير والعجمان . ونفى صحة الاشاعة عن عروض سلام بين ابن رشيد وشيخ الكويت ، كما نفى تقديم أية هدايا من طحين أو غيره إلى ابن رشيد . وأضاف أن الأخبار المتداولة في الكويت تفيد بأن ابن رشيد تلقى من البريطانيين مبلغ سبعين ألف روبية، وأنه يتصرف الآن بصورة مرضية ، وذكر أن ذلك أثار بعض التعجب . ونصح في الأخير بعدم الثقة الكثيرة بابن سويط[١٢]، وأوضح أن من المعتقد في الكويت عمل المذكور لمصلحته الذاتية فقط دون اعتبار للعواقب[١٣]. وتدل الحملة الأخيرة في برقية الوكيل على تلميح واضح على اعتقاده بأن مصدر معلومات السلطات البريطانية في البصرة عن اتصالات شيخ الكويت بأمير حائل هو ابن سويط .

ولكن الوكيل السياسي مالبث أن عدل في اليوم التالي معلوماته التي وردت أعلاه . واعتذر عن عدم دقتها نتيجة استعجاله في كتابة البرقية من أجل ارسالها بالقارب البخاري الذي كان يوشك على الاقلاع متجهاً إلى الفاو لتبرق من هناك . وأوضح أن ابن رشيد حاول بالفعل مؤخراً اقامة علاقات ودية مع شيخ الكويت ، ولكن لم ينتج شيء عملي عن تلك المحاولة . وفصل الوكيل ماجرى بالقول أن المحاولة تمت عن طريق مانع بن سويط الذي كتب لشيخ الكويت عن رغبة ابن رشيد بإقامة علاقة ودية معه . وقد رد الشيخ جابر على مانع بقوله إذا كان ابن رشيد يرغب بالسلم فيمكنه الحصول عليه ، ولكن ليس عن طريق التحرش بالكويت . أما إذا كان يرغب بالحرب فإنه ــ أي الشيخ جابر ــ مستعد له ــ وعلق الوكيل السياسي على هذا الرد فوصفه بأنه رد ممتاز ، ولم يتله عرض آخر من جانب ابن رشيد . ولم يفت الوكيل السياسي أن يكرر القول بأن الشيخ جابر وأصدقاء بريطانيا الخاصين الأخرين في الكويت ليس لديهم ثقة في حمود بن سيوط (الشيخ العام لقبيلة الضفير) ــ ونقل عنهم أيضاً اعتقادهم بأن ابن رشيد سوف يرسل رسائل البريطانيين التي تصله إلى الترك كي تزداد أهميته لديهم . وختم الوكيل مذكرته بنقل تعهد من شيخ الكويت بأن يعمل طبقاً للجملة الأخيرة

التي وردت في برقية كوكس المؤرخة في الثامن عشر من مايو ١٩١٦م ، والتي تنص على عدم دخول الشيخ مطلقاً في علاقات ودية مع ابن رشيد دون التشاور الكامل مع البريطانيين(١٤) .

ويبدو أن الوكيل السياسي البريطاني في الكويت أحس بالتأثير السيء الذي تتركه أخبار الكويت التي تصل إلى المراجع البريطانية في البصرة عن طريق آخر سواه ، فأحب أن يجد وسيلة دائمة لمعالجة ذلك الوضع . ولذلك كتب إلى مسئول الاستخبارات البريطانية في البصرة في الخامس والعشرين من مايو ١٩١٦م مبدياً ملاحظاته على بعض الأخبار الواردة في «خلاصة الاستخبارت «Summary of Intelligence» التي كانت تعدها شعبة الاستخبارات في البصرة وتضعها تحت تصرف الجهات المعنية . فذكر أن تلك الأخبار ليست قاسية بحق الكويت فحسب ، ولكن يحتمل أنها تسبب بعض القلق في الأوساط الرسمية البريطانية في البصرة . ولاحظ أن تلك الأخبار لا تصحح على ضوء المعلومات التي يرسلها هو باستمرار إلى رئيس الضباط السياسيين في البصرة . واقترح علاجاً لهذه المشكلة أن يرسل نسخاً من المعلومات تلك إلى شعبة الاستخبارات أيضاً حتى تكون مطلعة على أخبار الكويت أولاً بأول . وأعطى مثلاً لتلك الأخبار المبالغ فيها النص التالي الذي ورد في خلاصة الاستخبارات رقم ٤٧ ؛ «أنباء أخرى هي أن مفاوضات السلام في تقدم الآن بين شيخ الكويت وابن رشيد ، وأن الأول أرسل مقترحات محددة للأخير» . وبين أن ماحدث هو أن ابن رشيد حاول أن يرشو get at شيخ الكويت من خلال مانع بن سويط (عم حمد)(١٥) ، وأن الشيخ رد على ذلك بقوله «إذا كان ابن رشيد يريد السلم فيمكنه الحصول عليه ليس عن طريق التحرش بي ، وإذا كان يريد الحرب فأنا مستعد له» . وختم الوكيل كلامه بالقول أن جواب الشيخ ليس سيئاً على الاطلاق(١٦) .

يبدو أن رد الشيخ جابر على العرض الذي نقله ابن سويط قد احنق ابن رشيد بعض الشيء وجعله يلجأ إلى ممارسة الضغط على الشيخ لاقناعه بالعدول عن موقفه المتحفظ ــ فقد حدث في الأسبوع الأول من شهر يونيه أن تحرّكت من سفوان(١٧)، حيث كان يقيم ابن رشيد ، دورية قوة تضم بصورة رئيسة أربعين خيالاً من قبيلة العجمان لاستطلاع موقع القوة الكويتية خارج الجهرة التي كانت يقودها الشيخ سالم بن مبارك . ولكن القوة الكويتية علمت بتحركها فأمر الشيخ سالم قواته بالخروج لملاقاتها ، ولكنها انسحبت راجعة دون صدام ، وفي الوقت نفسه اعتقل الشيخ سالم أربعة أشخاص كانوا يتجسسون على قواته وهم شمري وعجمي

ومطيري وعازمي فسجنهم . وقد أدت تلك التحركات العدائية من جانب ابن رشيد إلى رد فعل معاكس من جانب الشيخ جابر . إذ أخبر ضاري بن طواله[١٨] بعدم اعتراضه على استقرار فخذ الاسلم في أراضي الكويت لبعض الوقت إذا كانوا يرغبون بذلك ، ولكن دون السماح لهم بدخول بلدة الكويت نفسها أو التمون من سوقها[١٩].

أدرك ابن رشيد أن عروض القوة تلك غير مجدية ، فاتجه نحو التصرف المباشر للوصول إلى أهدافه . ولم يقدم عرضه هذه المرة عن طريق طرف ثالث كما في المرة السابقة ، ولكنه كتب رسالة إلى الشيخ جابر رأساً في الحادي عشر من شهر يونيه . وقد استهل رسالته بالاعتذار عن عدم قيامه بواجب التعزية عند وفاة الشيخ مبارك ، ثم أعلن رغبته بصداقة الشيخ جابر ، ولكن وضع لتحقيق تلك الصداقة شرطاً قال إنه معروف جيداً من قبل الشيخ ، فرد عليه الأخير برسالة مؤرخة في الخامس عشر من الشهر نفسه قبل فيها اعتذاره عن عدم التعزية ، وطلب منه أن يشرح بصورة واضحة شرط الصداقة الذي ألمح إليه[٢٠] والغريب أن الشرط الذي ألمح إليه ابن رشيد لم يتم الافصاح عنه أبداً ، لا الآن ولا في المراسلات التالية كما سنرى عما قليل ، ولا أجد وسيلة للتكهن بماهية ذلك الشرط إلا بوضع فرضين يحتمل أن يكون ذلك الشرط احدهما . أما الفرض الأول فهو طلب التنسيق في موقفيهما من الأطراف المحيطة بهما كالعثمانيين والبريطانيين أو ابن سعود . وأما الثاني فهو طلب السماح له بالتمون من سوق الكويت . وأميل هنا إلى ترجيح الفرض الثاني ، إذ مر بنا ماكان يعانيه من تحكم بريطاني في وصول اتباعه إلى الأسواق الواقعة تحت سيطرتهم ولذلك لم يعد أمامه سوى أسواق الكويت . وهذا يفسر سر اتجاه ابن رشيد للتقرب من الشيخ جابر في هذه الفترة ، في حين كان رده خشناً على مفاتحة الشيخ مبارك له قبل شهور لأن حاجته الملحة للوصول إلى سوق الكويت لم تكن قد ظهرت بعد .

استلم ابن رشيد رد الشيخ جابر ، فعاود الكتابة إليه ثانية في الخامس عشر من شعبان ١٣٣٤هـ/ ١٧ يونيه ١٩١٦ . وكان مما كتبه : «لقد جلب فهد رسالته وفهمنا ماذكرت . قال لنا خادماك انك ترغب بصداقتنا . أن الأمر بيننا أمر طويل وليس طبقاً للحالة السابقة ، وهو يتطلب شرحاً وشروطاً مهمة يجب أن تتم بيننا . ولأن هدفي ذو أهمية كبيرة فأنني مرسل لك نهار أبو صفرة وحمد الشويعر اللذين سيخبرانك عن كل مافي فكري ، و(ستخبرهما) أنت أيضاً»[٢١] ويلاحظ على هذه الرسالة اقتصارها وغموضها الكبير . فهي تتحدث عن أمر طويل

بين الطرفين ، لا يتطابق مع الحالة السابقة . ولكنها لا توضح ماهية ذلك الأمر الطويل ولا سبب اختلافه عن الحالة السابقة . وتنص على أن ذلك الأمر يتطلب شرحاً طويلاً وشروطاً مهمة دون أن تلمح مجرد تلميح إلى تلك الشروط المهمة . وتصف هدف ابن رشيد من وراء تلك الاتصالات بأنه هدف كبير ، دون أن تعطي مايدل على طبيعة ذلك الهدف . وربما يكون ابن رشيد قد تعهد كل هذا الغموض لخشيته من أن تقع رسالته في أيدي العثمانيين أو البريطانيين بوسيلة من الوسائل . إذ لو وقعت بأيدي حلفائه العثمانيين فربما يؤدي ذلك إلى سوء علاقته بهم نتيجة لتراسله مع طرف يعتبر عدواً لهم ، أما إذا وقعت بأيدي البريطانيين فانهم سيضغطون على شيخ الكويت لمنعه من الاستجابة لطلب ابن رشيد .

ولنعد الآن إلى الرسولين اللذين بعثهما ابن رشيد حسبما ذكر في رسالته سالفة الذكر ، ويلاحظ هنا أن وصولهما إلى الكويت ومقابلتهما للشيخ جابر لم تسفر عن تبديد شيء من الغموض الذي أحاط بهدف ابن رشيد ، إذ لم يزد مافعله الرسولان على التأكيد مجدداً على رغبة ابن رشيد بصداقة الشيخ ، وطلبه من الأخير أن يوفد له رجلين لملاقاته . ويبدو أن الشيخ جابر شعر عند وصول الأمر إلى هذه المرحلة بضرورة التشاور مع البريطانيين احتراماً لتعهده السابق لهم بعدم الدخول في علاقات ودية مع ابن رشيد قبل التشاور التام معهم ، ولذلك صحب أخاه الشيخ سالم وذهبا لزيارة الوكيل السياسي البريطاني في الكويت عصر يوم التاسع عشر من يونيه . بين الشيخ للوكيل أنه يزمع الرد على رسالة ابن رشيد وإرسال الرجلين اللذين طلب ابن رشيد حضورهما إليه ، وأكد له عدة مرات أثناء الحديث أن لانية له اطلاقاً للانحراف عن خط السياسة البريطانية . وأضاف أن هدفه من ارسال المبعوثين هو ترك انطباع قوي لدى ابن رشيد بأن موقف الكويت والحكومة البريطانية شيء واحد ، ثم اقناعه بأن الترك لا يستحقون الثقة بهم والاعتماد عليهم ، وأن من الأفضل له أن يتركهم ويتبع سبيل البريطانيين . جرت بعد ذلك مناقشة طويلة حول نص الرسالة التي يزمع الشيخ ارسالها لابن رشيد ، بعد أن أكد له الشيخ جابر بأنه لن يسمح لابن رشيد تحت أي ظرف بالاقتراب من الكويت أو بالتمون من سوقها(٢٢).

وبعد تأمين موافقة الوكيل السياسي على تلك الصورة ، أوفد الشيخ جابر رسوليه لابن رشيد ، وحملهما له رسالة مؤرخة في الثامن عشر من شعبان ١٣٣٤هـ/ العشرين من يونيه ١٩١٦ . وكان نص تلك الرسالة: «لقد وصلت رسالتك، ووصل أيضاً نهار أبو صفرة وحمد

الشويعر اللذان قلت أنهما سيشرحان لنا كل شيء . ولكنا لم نحصل منهما على شيء سوى التعبير عن مشاعر الصداقة ، وان هدفك هو الود المتبادل ، وأننا يجب أن نرسل لك رجلين من عندنا . حسناً ، هانحن نرسل لك من جانبنا سيف العيجي Al aigi ومبارك بن حايف ــ هذام مالزم . . . »[٢٣] ويلاحظ على هذه الرسالة تحفظهما الواضح . فلقد تجنب الشيخ جابر أن يظهر فيها أية مشاعر ود أو صداقة . ولعل مرد ذلك المناقشة المطولة التي جرت مع الوكيل السياسي لنص الرسالة كما مر .

أعتبر ابن رشيد وصول هذين المبعوثين دليلاً على قبول الشيخ جابر لصداقته . وكان ذلك كافياً في نظره لأعلان السلم والصداقة بين الجانبين . وأكد ذلك الاعلام في رسالة مؤرخة في السابع والعشرين من يونيه ١٩١٦ ، بعثها للشيخ جابر وهذا نصها[٢٤]: «إلى جناب الاكرم المكرم الأخ جابر المبارك الصباح سلمه الله تعالى .

بعد مزيد السؤال نحن من فضل الله تعالى على ماتحبون ويحب كل صديق ثم الخط المكرم المؤرخ ١٨ شعبان سنة ١٣٣٤ وصل وتلوناه مسرورين بما أفاده من صحتكم وسلامتكم وسيف ومبارك وصلوا [كذا] وطلبنا لمجيئهم [كذا] بيان لما ارتبط بيننا وبينكم من الاتحاد الودي وأكدنا ذالك بالاعلام لعربانا ورعايانا بما حصل من ذالك كما شهده سيف ومبارك وانشاء [كذا] الله أنها تتأكد بتأكد العلائق والأسباب اللازمة ومراعاة حدودها المقتضية هذا مالزم مع سلامنا على الأخ سالم وكافة الصباح و [من] لدينا بخير ويسلمون ودمتم .

٢٥ شعبان سنة ١٣٣٤ الأمير سعود بن رشيد»[٢٥]

وقد اعتبر الشيخ جابر من جانبه ماجرى كافياً لاقامة سلم وصداقة بينه وبين ابن رشيد ، دون أن يلح على معرفة الشروط التي أشار إليها ابن رشيد سابقاً . فما أن عاد رسولاه يصحبهما رسولان من ابن رشيد يحملان رسالته المثبتة أعلاه ، حتى بادر بالرد على ابن رشيد برسالة مؤرخة في الثلاثين من يونيه ١٩١٦ ، هذا نصها :

«جناب المكرم الأفخم الأخ الأمير سعود الرشيد المحترم سلمه الله تعالى.

بعد مزيد السلام والسؤال عنكم وعنا نحمد الله بخير وسرور جعلكم الله كذالك. بعده كتابكم المكرم المؤرخ ٢٥ شعبان سنة ١٣٣٤ وصل وأسرنا [كذا] سلامتكم وما أبديتم صار معلوم وخدامنا سيف ومبارك وصلوا [كذا] وأفادونا [كذا] باعلامكم لعربانكم بالكف عن

طوارفنا ونحن أيضاً قد نبهنا على عربانا بالكفاف عن جميع طوارفكم كما شاهدو [كذا] نهار بوصفرة وحمد الشويعر وانشاء [كذا] الله انها تتأكد بتأكد العلائق والأسباب اللازمة ومراعاة حدودها المقتضية لطرفين [كذا] هذا مالزم سلم لنا على الأخ محمد الصالح والعزيز لديكم ومنا الأخ سالم وكافة الصباح يسلمون ودم سالماً.

٢٨ شعبان سنة ١٣٣٤ جابر المبارك الصباح !![٢٦]

إن التمعن في الرسالتين المارتين لا ينبيء عن أية اشارة لشروط متبادلة لعقد السلم والصداقة بين الجانبين. فقد اكتفى كل من الحاكمين بابلاغ رعاياه عن عقد السلم. وأمرهم بالكف عن التعدي على أراضي ورعايا الجانب الآخر بالغارات والغزوات المألوفة بين القبائل. ولكن ليس ذلك هو كل ماكان يريده ابن رشيد. فقد بينا سابقاً أن هدفه النهائي هو تأمين الوصول إلى سوق الكويت. وبالرغم من عدم ورود أي شيء عن ذلك الأمر في الرسالتين السابقتين، إلا أنني أرجح أن تفاهماً قد حدث بين الجانبين حول ذلك. وهناك احتمالان لكيفية حدوث ذلك التفاهم. أولهما انه كان تفاهماً ضمنياً أدركه الحاكمان دون أن يتطرق إليه صراحة، باعتبار أن اضفاء صفة الصداقة على ابن رشيد يلغي بالنتيجة امكانية منعه من التمون من سوق الكويت. أما ثانيهما فهو أن تفاهماً صريحاً قد تم من خلال المباحثات التي أجريت مع الرسل الذين تبودلوا بينهما عدة مرات، ولكن الحاكمين تعهدا اغفال الاشارة إلى ذلك التفاهم في رسائلهما خوفاً من اغضاب البريطانيين.

يؤيد ما رجحته أعلاه أن شيخ الزبير[٢٧] أبلغ رئيس الضباط السياسيين البريطانيين في البصرة في الثالث من يوليه بأن قافلة مكونة من ثلاثين جملاً يقودها عبد الله الفهد البسام اتجهت إلى الكويت بجلب المؤن لابن رشيد الذي كان مخيماً حينئذ في كابده[٢٨]. وعاد شيخ الزبير في الثامن من يوليه يبلغ السلطات البريطانية أن القافلة المذكورة لازالت في سفوان، وان الأفراد المصاحبين لها هم عدد من قبيلة العجمان مع عدد قليل آخر من أتباع ابن رشيد الخاصين. وبناء على تلك المعلومات أبرق رئيس الضباط السياسيين لشيخ الكويت طالباً منه منع هذه القافلة من التمون والقبض على رجال ابن رشيد الذين يصاحبونها[٢٩] ولاشك أن سبب هذا الموقف الحازم من جانب رئيس الضباط السياسيين يعود ليأس البريطانيين من اقناع ابن رشيد بتغيير موقفه الموالي للعثمانيين. إذ بعد مراسلات ووفود طويلة أرسلها البريطانيون ظل ابن رشيد متمسكاً برأيه، متنقلاً باتباعه على حافة الأراضي العراقية قرب مراكز وجود

القوات البريطانية هناك رغم طلب البريطانيين المتكرر له بالابتعاد . وازاء ذلك ومن أجل اجباره على الابتعاد شن خيالة البريطانيين بالتعاون مع ضاري بن طوالة وأتباعه وقبيلة الضفير غارة عليه . ويبدو أن ذلك قد أدى بالفعل إلى اقناعه بالتراجع نحو حائل[٣٠].

ويحسن أن نتعرف هنا على الموقف البريطاني من النتيجة التي انتهت إليها اتصالات الشيخ جابر وابن رشيد . فلقد أستعرض رئيس الضباط السياسيين البريطانيين في البصرة السربرسي كوكس في مذكرته المؤرخة في السابع والعشرين من يوليه ١٩١٦ تفاصيل تلك الاتصالات منذ البداية إلى النهاية . وعلق عليها قائلاً أن التدقيق فيها يؤكد الانطباع الذي تكون لديه أثناء متابعته الآنية للأحداث ومفاده أن موقف الشيخ جابر كان ضعيفاً ومائعاً إلى حد ما[٣١]. ولاحظ كوكس التناقض الذي اتسم به موقف الشيخ في هذا الصدد ، ففي حين كان يؤكد بالحاح للوكيل السياسي البريطاني في الكويت نواياه للتمسك بما تمليه السياسة البريطانية وتفرض مصالحها بصورة دقيقة ، كان يسعى من جانب آخر إلى اجراء مفاوضات ودية مع ابن رشيد ، في اللحظة نفسها التي يعلم فيها بأن الأمير قد أعلن عداءه للبريطانيين. وأضاف كوكس أنه دون تلك الملاحظات فقط لأنها تفيد في اظهار أن موقف الشيخ جابر في هذه القضية يلقي بعض الضوء على شخصيته مقارنة بشخصية والده . وختم كوكس مذكرته باشعار الوكيل السياسي بعدم رغبته في اتخاذ أي اجراء اطلاقاً بناء على تلك الملاحظات ، خاصة وانه ربما سيكون من الملائم للمصلحة البريطانية قيام علاقات ودية بين حائل والكويت من جانب ، وبينها وبين المحمرة من جانب آخر . إذ قد تلجأ السلطات البريطانية إلى اتخاذ الشيخين جابر وخزعل وسيلتي اتصال مع ابن رشيد فيما يتعلق بثورة الشريف حسين التي كانت قد أعلنت في مكة المكرمة منذ وقت قريب[٣٢].

استلم الوكيل السياسي البريطاني في الكويت مذكرة كوكس فعلق من جانبه على ماجرى بمذكرة مؤرخة في الثامن من أغسطس ١٩١٦ . فأعرب عن خشيته من أن لايكون هناك سوى قليل شك في كون الشيخ جابر حاكماً ضعيفاً . ولكن ذلك يقابله تعاطفه الحقيقي والكلي مع البريطانيين ، رغم أن اقدامه على التفاوض مع ابن رشيد حول هدنة منفصلة كان بعيداً عن الصحة . ثم حاول الوكيل السياسي بعد ذلك تبرير ماحدث بقوله إن مايجب تذكره في هذا الصدد هو أن ابن رشيد كان موجوداً في جوار الكويت وهو في حالة غضب نتيجة عدم السماح له بالمسابلة[٣٣]، وكان قادراً على الحاق مقدار كبير من الأذى بالقبائل التابعة للكويت .

وأضاف انه كان هنالك رعب حقيقي في بلدة الكويت من هجوم متوقع من جانب ابن رشيد ، ولذلك فان ضغطاً قد مورس بلا ريب من كل الأوساط في البلدة على الشيخ لحمله على الوصول إلى ترتيب ما مع ابن رشيد[٣٤].

ورغم ذلك التبرير لم يسلم الوكيل السياسي من لوم وجهه رؤساؤه لمسلكه أثناء جريان تلك المراسلات . منذ كتب له كوكس مجدداً في الثاني من سبتمبر ١٩١٦ قائلاً إن توجه الشيخ جابر نحو ابن رشيد لم يحظ بالاهتمام العملي أول الأمر . أما إذا كان هناك أي احتجاج بريطاني فيما بعد على رسالته المؤرخة في السابع والعشرين من يونيه[٣٥] لابن رشيد ، فإنه سيعتذر ببساطة بالقول إنه عرض مسودتها على الوكيل السياسي . وأنكر كوكس على الوكيل السياسي اعتباره لتلك الرسالة على أنها مجرد اشعار شكلي ومهذب لاستلام رسالة ابن رشيد . ووصفها بأنها قرار نهائي بالاتفاق مع حاكم كان حتى تلك اللحظة تابعاً معلناً لتركيا ونصيراً لها ، وهو لذلك عدو للحلفاء . وانتقل كوكس بعد ذلك إلى وصل زيارة الشيخ جابر له في البصرة قبل عدة أيام بحضور الشيخ خزعل شيخ المحمرة . فقال إن الشيخ جابر أسرف في اعلان اخلاصه ورغبته في تلقي الأوامر من بريطانيا كي ينفذها بحذافيرها . وأضاف كوكس أنه اعتبر اعلان الشيخ ذاك صادقاً ، ولكنه أخبره ــ دون اشارة محددة لموضوع ما ــ بأن من المهم جداً وجوب مشاورته للوكيل السياسي في الكويت قبل الاقدام على عمل ما وليس بعده . وقد أمن الشيخ خزعل على أهمية ذلك أيضاً . وختم كوكس مذكرته باعطاء توجيهاته للوكيل السياسي قائلاً: «أعتقد اننا يجب أن ندع الأمر عند هذا الحد ونعترف بأن لدينا حاكماً ضعيفاً رعديداً ــ ولكنه حسن النية ــ علينا التعامل معه ، ولا نستطيع أن نتركه لوسائله الخاصة كما كنا نفعل مع الشيخ مبارك . ان هذا يضع مسئولية كبيرة على الوكيل السياسي لاحراز تأثير على الشيخ جابر لدرجة تجعله يكتسب تدريجياً عادة المجيء للتشاور مع وكيله السياسي في كل الأمور ذات الأهمية كما يفعل شيخ المحمرة بالضبط . أرجو أن تكافح للوصول إلى هذه الغاية !![٣٦].

وهكذا يمكن القول بعد التدقيق في كل ما مر أن الاتصالات التي جرت استهدف من ورائها ابن رشيد تحقيق مصلحة مادية ملحة . وكانت تلك المصلحة هي تأمين وصوله إلى سوق الكويت للحصول على المؤن اللازمة لاعاشة رعاياه . كما أن تلك الاتصالات لاقت قبولاً لدى شيخ الكويت رغم التمنع الذي أظهره بداية بسبب خشيته من اغضاب البريطانيين . وكان قبوله ذاك عائداً لرغبته أيضاً في تحقيق مصلحة مادية ، وهي تأمين أراضي الكويت وقبائلها من

أية أعمال عدائية قد يشنها ابن رشيد ، ولا يجب أن ننسى ما يعود بعد تموين حائل ـ لو أمكن تحقيقه ـ من منافع اقتصادية واضحة لسوق الكويت.

يلاحظ كذلك أن رد الفعل البريطاني على تلك الاتصالات لم يكن حازماً حاسماً ولكنه كان مزيجاً من الرضا الخفي والاعتراض الشكلي . أما الرضا الخفي فكان مبعثه الأمل في أن تسهم تلك الاتصالات في تحقيق مصلحة عاجلة تعود على الجانب البريطاني وهي تليين موقف ابن رشيد تجاه بريطانيا . بالإضافة إلى الأمل في تحقق مصلحة آجلة من وراء تلك الاتصالات وهي فتح قناة للتأثير على ابن رشيد مستقبلاً من خلال شيخ الكويت لتفادي أية امكانية لتحرك حائل بالتنسيق مع الترك ضد ثورة الشريف حسين في الحجاز ، أو ضد تحركها المزمع شمالاً نحو الشام على مسيرة حائل . أما الاعتراض البريطاني الشكلي فهو على اتخاذ الشيخ جابر لموقف ذي طابع استقلالي ـ ولو بقدر محدود ـ عن الموقف البريطاني.

وبهذا يمكن القول أن الأطراف الثلاثة كلها كانت تؤمل الوصول إلى هدف مصلحي من وراء تلك الاتصالات . ويمكن القول أيضاً أن شيخ الكويت حقق هدفه نتيجة لتلك الاتصالات ، إذ أمن من خلال اعلان السلم والصداقة مع ابن رشيد السلامة لقبائله وأراضيه ، كما حققت بريطانيا بعض المنافع أيضاً ، إذ أمنت فتح قناة التأثير المستقبلي غير المباشر على ابن رشيد من خلال شيخ الكويت بالإضافة إلى أنها جعلت شيخ الكويت أكثر خضوعاً لأوامرها ونواهيها في المستقبل . أما ابن رشيد فلم يكسب نتيجة الصفقة أي شيء ذا بال ، فقد حالت بريطانيا بينه وبين الوصول إلى هدفه الوحيد من وراء كل تلك الاتصالات ، وهو التموين من سوق الكويت . إذ أصرت على شيخ الكويت بعدم السماح لأية قافلة من حائل بدخول البلدة ، ثم أقامت فيما بعد نظام الحصار الاقتصادي على الكويت . ولم يعد لابن رشيد إزاء ذلك من منفذ للمؤن إلا التهريب ، والحديث عن حركة التهريب تلك حديث طويل ليس هنا مجاله .

●●●

الهوامش :

١) لتفاصيل أوفى راجع: خالد السعدون، العلاقات بين نجد والكويت، الرياض، ١٤٠٣، ص ص ١٥٣ ـ ١٦٢.

٢) خالد السعدون، الأوضاع القبلية في ولاية البصرة العثمانية، رسالة دكتوراه غير منشورة، ص ص ٣٥٨ ـ ٤٢٠.

٣) للتعرف على تفاصيل ذلك ، راجع : خالد السعدون، موقف امارة حائل من الحرب العالمية الأولى كما صورته الوثائق البريطانية، في «الدارة، العدد الثاني، السنة التاسعة، محرم ١٤٠٤/ أكتوبر ١٩٨٣، ص ص ٢٨ ـ ٤٣٩.

٤) 10R, R/15/5/25, No. C-9 of 1915, from P.A., Kuwait, to P.R. in the P.G, Bushire, dated 29/6/1915.

٥) 10R, R/15/5/25, *enclosure* in No. C-9 of 1915.

٦) السعدون، العلاقات بين نجد والكويت، ص ص ١٥٤ ـ ١٥٦.

٧) 10R, R/15/5/25, *enclosure* in No. 6666.

٨) المصدر نفسه.

٩) 10R, R/15/5/25. No. 4216, from C.P.O., Basrah, to P.A., Kuwait, dated 16/5/916.

١٠) سميت نسبة إلى عبدالله بن خميس، أحد أهالي القصيم الذين كانوا يوالون فالح باشا السعدون شيخ المنتفق ، وهي قرية صغيرة تقع على حافة الصحراء في المنطقة الواقعة بين سوق الشيوخ والزبير في جنوب العراق ، وكانت سوقاً رائجاً لقبائل البادية ، ولكنها اندثرت الآن. راجع :
لغة العرب، السنة ١، ج ١١، جمادى الأولى ١٣٣٠ ـ نيسان ١٩١٢، ص ص ٤٣٢ ـ ٤٣٣.

١١) 10R, R/15/5/25, No. 2326, from Sir P.Cox, Basrah, to P.A., Kuwait, dated 18/5/916.

١٢) آل سويط هم بيت المشيخة العامة لقبيلة الضفير المعروفة.

١٣) 10R, R/15/5/25, telegram from Grey, Kuwait, to Sir P.Cox, Basrah, dated 22/5/916.

١٤) 10R, R/15/5/25, No. C-43 of 1916, from Grey, Kuwait, to C.P.O., Basrah, dated 23/5/916.

١٥) لعله يقصد عم حمود بن سويط الذي مر ذكره سابقاً .

١٦) 10R, R/15/5/25, No., from Grey, Kuwait, to lt - Col. *Beech* , Basrah, dated *25/5/916*

١٧) أبار على الطريق البري بين الزبير والكويت . وهي الآن مركز العبور الرسمي بين العراق والكويت .

١٨) شيخ فخذ الاسلم من قبيلة شمر . وكان معادياً لابن رشيد وموالياً للبريطانيين .

١٩) 10R, R/15/5/25, *enclosure* in No. 6666.

٢٠) المصدر نفسه .

٢١) 10R, R/15/5/25, inclosure in No. C-53 of 1916, translation of a letter from Bin Rashid to shaikh Jabir dated 15 th Shaban 1334.

٢٢) 10R, R/15/5/25, No. C-53 of 1916, from P.A, Kuwait, to C.P.O., Basrah, dated 23/6/916.

٢٣) المصدر نفسه .

٢٤) تعهدت أن أنقل الرسائل بنصوصها الأصلية رغم مافيها من أخطاء لغوية وإملائية وذلك لاعطاء القارىء فكرة عن أسلوب الكتابة في ذلك الوقت ، وكيف كانت تتم المراسلات السياسية .

٢٥) 10R, R/15/5/25, *enclosure* (1) in No. 58 - C of 1916.

٢٦) 10R, R/15/5/25, *enclosure* (2) in No. 58 - C of 1916.

٢٧) كان شيخ الزبير في هذه الفترة هو ابراهيم بن عبدالله آل ابراهيم .

٢٨) أبار تقع شمال غرب الزبير.

٢٩) 10R, R/15/5/25, *enclosure* in No. 6666.

٣٠) 10R, R/15/5/25, No. 7997, from C.P.O., Basrah, to D.P.R., Bushire, dated 4/9/916.

٣١) يلاحظ هنا التحامل البريطاني الواضح ضد الشيخ جابر ونعت موقفه بعبارات حادة ، وقد تعهدت أن أورد تلك العبارات كما جاءت في نصوصها الأصلية، لأنها تعطي فكرة عن كيفية تقويم السلطات البريطانية للحكام العرب المتعاملين معها حينئذ . فالحاكم الذي عايش البريطانيين في كل ما يريدون ينال رضاهم ومديحهم ، أما إذا ابتعد عن توجيهاتهم قليلاً فإنه يصبح هدفاً لسخطهم .

٣٢) 10R, R/15/5/25, No. 6666, from C.P.O, Basrah, to P.A., Kuwait, dated 27/7/1916.

٣٣) المسابلة في اصطلاح تلك الأيام هي اتجاه القوافل إلى سوق معين لجلب المؤن ، ولعلها مأخوذة من كلمة السبيل أي الدرب .

٣٤) 10R, R/15/5/25, No. 58, C of 1916, from P.A., Kuwait, to C.P.O., Basrah, dated 8/8/1916.

٣٥) مر بنا أن تلك الرسالة بعثت في الثلاثين من يونيه رداً على رسالة ابن رشيد المؤرخة في السابع والعشرين منه .

٣٦) 10R, R/15/5/25, No. 7941, from C.P.O., Basrah, to P.A. Kuwait, dated 2/9/1916.

المصادر والمراجع

أ ـ وثائق غير منشورة :

1 - 10R, R/15/5/25, No. C-9 of 1915, from P.A., Kuwait, to P.R. in the P.G., Bushire, dated 29/6/1915, with one enclosure.

2 - 10R, R/15/5/25, No. 6666, from C.P.O., Basrah, to P.A., Kuwait, dated 27/7/1916, with one enclosure.

3 - 10R, R/15/5/25, No. 2326, from Sir P.Cox, Basrah, to P.A., Kuwait, dated 18/5/1916.

4 - 10R, R/15/5/25, telegram from Grey, Kuwait, to Sir P.Cox, Basrah, dated 22/5/1916.

5 - 10R, R/15/5/25, No. C-43 of 1916, from Grey, Kuwait, to C.P.O., Basrah, dated 23/5/1916.

6 - 10R, R/15/5/25, No. , from Grey, Kuwait, to Lt- Col. Beech, Basrah, dated 25/5/1916.

7 - 10R, R/15/5/25, No. C-53 of 1916, from P.A., Kuwait, to C.P.O., Basrah, dated 23/6/1916, with one enclosure.

8 - 10R, R/15/5/25, No. 7997, from C.P.O., Basrah, to D.P.R., Bushire, dated 4/9/1916.

9 - 10R,R/15/5/25, No. 58-C of 1916, from P.A., Kuwait, to C.P.O., Basrah, dated 8/8/1916.

10 - 10R, R/15/5/25, No. 7941, from C.P.O., Basrah, to P.A., Kuwait, dated 2/9/1916.

ب ـ المراجع :

١ ـ خالد السعدون، العلاقات بين نجد والكويت ، الرياض، ١٤٠٣

٢ ـ خالد السعدون، العلاقات القبلية في ولاية البصرة العثمانية ١٩٠٨ ـ ١٩١٨، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة .

جـ المجلدات :

١ ـ لغة العرب، السنة الأولى، الجزء الحادي عشر ، جمادى الأولى ١٣٣٠هـ/نيسان ١٩١٢م .

٢ ـ الدارة، السنة التاسعة ، العدد الثاني، محرم ١٤٠٤هـ/ أكتوبر ١٩٨٣ .

توضيح المختصرات

10R, – India office Records.

P.A. – Political Agent.

P.R. – Political Resident.

P.G. – Persian Gulf.

C.P.O. – Chief Political Officer.